الأبواب الكثيرة للحق والباطل .

الألفاظ والأساليب

قطع العلمُ والأدبُ في العصر العباسي شوطاً كبيراً في ساحة الرقي والتقدُّم والازدهار . وازداد عدد الدارسين والناهلين من معين المعرفة . تلك المعرفة النابعة من أصول قديمة أو آتية من منافذَ جديدة . ومَنْ يلاحظ في ألفاظ هؤلاء الدارسين وأساليبهم يجدها تتراوح بين القوة والجزالة من جهة والسهولة والليونة من جهة أخرى .

كانت صلةُ كثير من الشعراء قويةً بالشعر القديم . فبشار بن برد مثلاً كان يجاري امرىء القيس(٣٠١) . ويتعمد محاكاة الأساليب القديمة . ولا عجَبَ حين قالَ الأصمعي : « بشار خاتمة الشعراء . والله لولا أيامه تأخرتْ لفضّلته على كثير منهم » . وأبو نواس قال عن نفسه : « ماظنكم برجلٍ لم يقل الشعر حتى رَوَى دواوين ستين إمراة من العرب . منهم الخنساء وليلى . فما ظنكم بالرجال ؟(٣٠٢) » . وكان محمد بن مُناذر « ينحونحوغدِي بن زيد في شعره . ويميل اليه . ويقدمه » . وعُرِفَ عن أبي تمام بروايته للقديم من الاشعار . حتى انَّ الحسن بن رجاء قال : « مارأيتُ أحداً قطُّ أعلمَ بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام »(٣٠٣) .

---

(٢٩٩) الأخدعان : عرقان في العنق . عوداً : جملاً مسناً . ركوبا : مذللاً .

(٣٠٠) الاصاخة : إمالة الأذن للسمع . الوجيب : صوت حركة القلب

(٣٠١) الأغاني ٣ : ١٩٦ .

(٣٠٢) الاغاني ٣ : ١٤٣ .

(٣٠٣) أخبار أبي تمام ص ١١٨ .

إن فئة كبيرة من شعراء العصر العباسي الأول كان شعرهم يجاري الأقدمين تارةً . والمحدثين تارةً أخرى . ومن أشهرهم بشار بن برد ، وأبو نواس ، ومروان بن ابي حفصة . ومسلم بن الوليد . وأبو الشيص . ودعبل الخزاعيُّ . والحسين بن مُطير الأسديُّ . وعمارة بن عقيل . وكلثوم بن عمرو العتّابي . وأبو تمام ، وعبدالملك بن عبدالرحيم الحارثي ... فمن النماذج الرصينة القوية قول أبي نواس من قصيدة يمدحُ بها الخليفة هارون الرشيد(٢٠٤)

انا اليــك من الصَّليتِ فداسمٍ ... طلعَ النّجادَ بنا وجيفَ الأنيقِ(٢٠٥)
يتبعنَ مائرةَ الملاطِ . كأنّمــا ... ترنو بعينيَ مقلتٍ لـم تغرقِ(٢٠٦)
خنساء ترعى جؤذراً بخميلةٍ ... وبها اليه صبابةً كالأولقِ(٢٠٧)
حتى اذا وجدَتْهُ لم تر عندهُ ... الاّ مــجرَّ إهابــهِ المتمــزّقِ

في هذه الأبيات يصف الشاعر حنين الابل واشتياقها الى أعطانها . ويشبهها ببقرة وحشية ترنو الى ابنها في خميلة . وليس لها سِواه . لأن كلَّ أولادها ماتوا أو لأنها ولدته ولم تلد بعده . فلما ذهبت اليه وجدته قتيلاً فأُوعلتْ عليه . وأرزمتْ له فهو يشبه هذا بهذا . وهذه الصورة التي رسمها النواسي تشبه أختاً لها عند الخنساء في رثاء أخيها صخر في رائتيها المشهورة . ومن النماذج السهلة الميسورة الخفيفة على الأسماع قول مروان بن أبي حفصة في مُقدمة قصيدة يمدح بها الخليفة المهدي(٢٠٨)

طرقتــك زائرةُ فحــيَّ خيالــها ... بيضاءُ تخلــطُ بالحياءِ دلالها
قادتْ فؤادَك فاســتقاد ومــثلُــها ... قاد القلوبَ الى الصبا فأمالها

---

(٢٠٤) ديوانه ص ٤٠٠

(٢٠٥) الصليت وداسم : اسما موضعين . النجاد : مفردة النجد ، وهو ماأشرف من الأرض . الوجيف : نوع من السير السريع .

(٢٠٦) المائرة : المضطربة الملاط : جانبا السنام . المقلت المرأة لايعيش لها ولد .

(٢٠٧) الأولق : المجنون .

(٢٠٨) شعره ص ٩٦ .

ومنها في المديح :

أحيا أميرُ المؤمنين محمدٌ ... سُنَنَ النبيِّ حرامَها وحلالَها
سلكَ تفرُّعَ نبعةٍ من هاشمٍ ... مدَّ الإلهُ على الأنام ظلالَها
جبلٌ لأمتِّهِ تلوذُ بركنِهِ ... راذى جبالَ عدوِّها فأزالها

وهناك فئةٌ أخرى من الشعراء سلكتْ طريقاً سهلاً ميسوراً ، يسميهم نجيب محمد البهبيتي أنصار المدرسة الشعبية(٣٠٩) ، وهم كثيرون وعلى رأسهم أبو العتاهية ، والعباس بن الأحنف ، وربيعة الرقّي . وقد سار شعرهم بين محبي الأدب « ووجد الناس فيه مراحاً من كدّ القريحة ، وإعمال الذهن ، ومهرباً من النَّصب الذي يلقونه في قراءة غيرهم من الشعراء »(٣١٠) . وحسبنا من شعر هذه المدرسة قول ربيعة الرقّي متغزلاً بفتاة تُدعى غُنمة(٣١١)

حمامةُ بلِّغي غنّي سلاما ... حبيباً لا أطيقُ له كلاما
وقولي للتي غضبتْ علينا ... علامَ ، وفيمَ ياسكني علاما

ومنها :

وإنَّ جميعَ أهلكِ عنَّفوني ... ولاموني ، ولم أطق الملاما
كرامَ الناسِ قبلي قد أحبوا ... كرائمهم وأحببنَ الكراما
جميلٌ والكُثيِّرُ قد أحبّا ... وعُروةُ مِنْ هوىً لاقى حِماما
هم سَنُّوا الهوى والحبَّ قبلي ... وما ألفى لهم في الناسِ ذاما
فيا « غنّامُ » يابَصري وسمعي ... رئيسَ هواكِ أورثني سَقاما
لقد أقصدتِ ـ حينَ رميتِ ـ قلبي ... بسهمِ الحبِّ ، إنَّ له سِهاما

بهذه الرقة والعذوبة يسترسل الشاعر في قصيدة طويلة ، طالباً من الحبيبة أن يلين قلبها ، وتعطف عليه ، وتميل اليه ، وتُنجيه من لوعة الغرام ودواعي الشوق والهيام .

ان اغلب الشعراء ، سواء كانوا من أنصار الأوائل أم من أنصار المدرسة الشعبية ، تأثروا بالعصر الجديد ومعطياته ، ومن هنا تعصّبَ اللغويون لأدب ماقبل الاسلام

---

(٣٠٩) ينظر تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٣٨٢ .
(٣١٠) نفسه ص ٤٠٩ .
(٣١١) شعره ص ٨٨ .

والعصر الإسلامي والأموي . وقد تساهل الأصمعي حين ختم الشعر بابن هَرْمة وابن ميّادة وأضرابهما من شعراء نجد والحجاز الذين ادركوا الدولة العباسية(٣١٢)

لقد تسرّبت كثير من الالفاظ والافكار الى الساحة الأدبية من الاقوام الذين امتزجوا بالعرب وتصاهروا مع الكثيرين منهم . ومن يراجع الكتب التي عُنيت بالألفاظ الدخيلة مثل « المعرب » لأبي منصور الجواليقي . و « شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل » لشهاب الدين الخفاجي يجد ألفاظاً كثيرة أصبحت مألوفة الاستعمال في الشعر والنثر . مثل : الفالوذج . والديباج . والطيلسان . والخوان . والطشت . والابريق . والمهرجان . والنيروز . والمارستان . والدسكرة . والقولنج . والترياق . والهيولى . والاسطرلاب . والقيراط ... ومن أكثر الشعراء استخداماً للألفاظ غير العربية أصلاً أبو نواس . وكان أحياناً يأتي بها على وجه التظرُّف والتملُّح كما يقول الجاحظ(٣١٣) . كذلك وَفَدتْ الى العربية بعض ألفاظ التبجيل مثل الحضرة والجناب . والادارية مثل صاحب للشرطة وصاحب الستار ...

وشاع استعمال الألفاظ المركبة مع لا النافية في حالة التعريف كاللانهاية . واللاضرورة . واللاارادة ... وكذلك صياغة الأسماء من الحروف والضمائر مثل الكمية والكيفية والماهية والهوية ... كما أدخلت الألف والنون قبل ياء المتكلم مثل نفساني وروحاني ... وهذه وتلك من خواص اللغة الآرية كما يقولون(٣١٤)

وضمن بعض الشعراء ألفاظ المتكلمين والفلاسفة في شعرهم مثل : الحركة والسكون والروح والجسد والكل والبعض والجوهر والعرض والجزء والقليل والأقل ... وقد استشهد الجاحظ في هذا المجال بشعر أبي نواس في جنان جارية آل عبدالوهاب الثقفي :(٣١٥)

---

(٣١٢) الأغاني ٤ : ٣٧٣ .

(٣١٣) البيان والتبيين ١ : ١٤١ وينظر الأبيات الشعرية التي فيها ألفاظ أعجمية في كتاب الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

(٣١٤) تاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ٤١ .

(٣١٥) البيان والتبيين ١ : ١٤١ وينظر ديوان أبي نواس ص ٢٣٣ .

وذاتِ خدٍّ مورَّدٍ فتّانةٍ المتجرِّدْ(٣١٦)
نائلُ العينِ منها معاشقاً ليس تنفدْ
فبعضُها قد تناهى وبعضها يتولَّدْ
والحسنُ في كلِّ عضوٍ منها معادٌ مردَّدْ

ولأبي نواس أيضاً(٣١٧)

ياعاقدَ القلبِ منّي : هلاَّ تذكرتَ حلاَّ
تركتَ منّي قليلاً من القليلِ أقلاَّ
يكادُ لا يتجزّا أقلّ في اللّفظِ من « لا »

وهكذا تجاوز الشعراءُ على المعجم الشعري الأصيل . واستخدموا الفاظاً وتراكيب أعجمية فضلاً على المصطلحات العلمية والفقهيةً والفلسفيّة والصوفيّة وسواها . وقد ابتعد بعض الشعراء عن السليقة مما هيأ لظهور اللحن والخروج أحياناً عن القياس الصرفي(٣١٨) . وكان علماء اللغة لهم بالمرصاد . كلما انحرفوا دلّوهم على انحرافهم . ويفيض كتاب الموشح للمرزباني في مآخذ هؤلاء العلماء عليهم .

---

(٣١٦) المتجرده : أي بضة عند التجرده .

(٣١٧) البيان والتبيين ١ : ١٤١ ، وانظر : ابو نواس لابن منظور ص ١٩ حيث تجد فيه أشعاراً أخرى فيها دليل على معرفته بألفاظ المتكلمين .

(٣١٨) ينظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٢٤ .